نظرية الحضارة بين اسوالد اشبنجلر ومالك بن نبي – مقاربة في أفق التقارب–

The Theory of Civilization between Oswald Spengler and Malik Bennabi - An Approach on the Horizon of Convergence -.

La théorie de la civilisation entre Oswald Spengler et Malik Bennabi - Une approche à l'horizon de la convergence -.

بروال جمال[1] *

تاريخ الإرسال: 2022/02/15 **تاريخ القبول**: 2022/05/27 **تاريخ النشر**: 2023/06/01

ملخص:

تعد الحضارة من أخصب الموضوعات الفكرية التي نالت اهتمام الفلاسفة والمفكرين والمؤرخين، وخاصة فلاسفة التاريخ والحضارة في الفترة المعاصرة، حيث تم مقاربتها بالبحث والدراسة من زوايا متعددة، وذلك بحسب تعدد وتنوع مجالات دراسة هذا الموضوع في حد ذاته. وقد أفرز اهتمام بحثهم ومقارباتهم، بلورة وتأسيس العديد من النظريات، سواء تلك المتعلقة بمفهومها وخصائصها، أسسها ومقوماتها، مظاهرها وانجازاتها، آثارها وعلاقاتها مع بعضها البعض، مصيرها ومستقبلها، مسار سيرها وتقدمها. ولعل من أشهر النظريات الفلسفية التي ظهرت في هذا الحقل الفكري، نجد نظريتي الفيلسوف الألماني اسوالد اشبنجلر والفيلسوف الجزائري مالك بن نبي.

إن هذه الدراسة، جاءت أساسا من أجل إبراز واستكشاف أوجه التقارب والتقاطع بين النظريتين حول موضوع الحضارة.

الكلمات المفتاحية: الحضارة؛ اسوالد اشبنجلر؛ مالك بن نبي؛ التقارب.

Abstract :

Civilization is one of the most fertile intellectual topics known in philosophical research, which has been approached by philosophers, thinkers and historians, especially philosophers of history and civilization, and from multiple and varied angles, according to the multiplicity and diversity of its fields of study. Their research interest resulted the establishment of many theories, both those related to its concept and characteristics, its foundations and components, its aspects and achievements, its effects and its relations with each other, its fate and future, the course of its progress . Perhaps one of the most famous theories that appeared on the philosophical thinking domain in this field, the theories of the German philosopher Oswald Spengler and the Algerian philosopher Malek Bennabi

This study aims to highlight and explore the convergences between the two theories on the subject of civilization.

Keywords: civilization; Oswald Spengler; Malek Bennabi; rapprochement

Résumé :

La civilisation est l'un des sujets intellectuels les plus connus de la recherche philosophique, telle qu'elle a été abordée par les philosophes, les penseurs et les historiens, notamment les philosophes de l'histoire et de la civilisation, et sous des angles multiples et variés, selon la multiplicité et la diversité de ses champs d'étude leur intérêt de recherche a conduit à la cristallisation et à l'établissement de nombreuses théories, tant celles relatives à son concept et ses

*المؤلف المراسل

[1]D. Djamel beroual,university,badji mokhtar annaba:Algeria, djamelphilo@gmail. .

caractéristiques, ses fondements et ses composantes, ses aspects et ses réalisations, ses effets et ses relations entre elles, son destin et son avenir, le chemain de son déroulement et de son évolution. Peut-être l'une des théories les plus célèbres apparues dans la pensée philosophique dans ce domaine, on retrouve les théories du philosophe allemand Oswald Spengler et du philosophe algérien Malek Bennabi.

Cette étude est venue principalement afin de mettre en évidence et d'explorer les convergences entre les deux théories sur le sujet de la civilisation.

Mots clés : civilisation ; Oswald Spengler; Malek Bennabi; rapprochement.

مقدمة:

يعد سؤال الحضارة من أبرز الأسئلة التي تفرض نفسها بقوة على ساحة التفكير الفلسفي، كونه سؤال إنساني بدرجة أولى، حيث اهتم الإنسان من خلال دراستها، بوضع الخطط المستقبلية التي تستهدف الارتقاء بالإنسانية، وهذا ما يبدو لنا واضحا في جل نظريات الفلاسفة ومفكرو الحضارة منذ العصر القديم إلى وقتنا الراهن. فقد نال موضوع الحضارة حيزا كبيرا من الدراسات الفلسفية الحديثة والمعاصرة، نظرا لما له من صلة وطيدة بكينونة وواقع الإنسان من جانب، وتشعب وتعقد موضوعاته من جانب آخر، ولذلك تم مقاربته بإسهاب من عدة زوايا مختلفة، وهذا كله من أجل فهم مشكلة الحضارة، واستخلاص القوانين الكلية التي تتحكم فيها، سواء في سير حركتها والتنبؤ بمستقبلها، وتزويد الإنسان بمعرفة حركية ومسار المجتمعات والحضارات.

لقد تمخض عن هذا الاهتمام أراء وتصورات وأطروحات ونظريات متعددة ومتنوعة، تتعلق بمفهومها وخصائصها، أسسها ومقوماتها، مظاهرها وانجازاتها، آثارها وعلاقاتها مع بعضها البعض، مصيرها ومستقبلها.كما نظرت إليها بشمولية، أي بالنظر إلى كل ما يتعلق بميلاد ونشوء الحضارات وصيرورتها وسقوطها واضمحلالها، فآمنت بالحضارة بوصفها وحدة من وحدات التاريخ.

ولعل من أبرز النظريات المقدمة في هذا المجال، نظرية العناية الإلهية التي هيمنت لحقبة زمنية طويلة من التفسير التاريخي للحضارات، حيث هيمنة الفكر التيولوجي في معظم الحضارات القديمة وفي خاصة في القرون الوسطى خاصة مع سانت أوغسطين Saint Augustine(354- 430 م) وهي الفترة التي هيمنت فيها الكنيسة على التفكير والكتابة التاريخية. هذه النظرية التي تقوم على مبدأ يعطي الله كل الفعل في الأحداث التاريخية، ويعفي الإنسان من صنع تاريخه، وبذلك تكون الآلهة مصدر لنشوء الحضارات وتطورها. ثم جاءت بعدها نظرية التقدم، والتي ارتبطت بعصر التنوير في أوروبا مع القرن الثامن عشر، والتي ثار فيها المفكرون على التفسير الديني اللاهوتي، وقالوا بأن الإنسان هو مركز التاريخ، وأن التاريخ يتكون من أفعال الناس ومساعيهم، أي أن الحضارة يصنعها الإنسان، وليست الإرادة الإلهية، حيث أن لتاريخ هو سير متواصل في سبيل التقدم بقيادة العقل الإنساني، وبذلك فهي فلسفة تتبنى التقدم الحضاري.

وفي القرن العشرين ظهرت نظريات أخرى، حاول أصحابها الاستجابة لدراسة الحضارات في سياق تاريخي، وإن اختلفت المنطلقات والأفكار التنظيرية التي أقيمت عليها، ومن أبرزها نجد نظريتي: اسوالد اشبنجلر Oswald Spengler(180-1936م) ومالك بن نبي(1905- 1973 م).

إن السؤال الذي يمكن طرحه في هذا المجال: ما العلاقة القائمة بين النظريتين؟ وبالأحرى ما هي أوجه التقارب بين النظريتين؟

1– اعتماد التفسير الدوري للحضارة:

إن أبرز أوجه التقارب بين الفيلسوفين، اتفاقهما في نظرية التعاقب الدوري للحضارة، والتي نالت شهرتها مع رائد العمران البشري ومؤسس فلسفة التاريخ عبد الرحمن ابن خلدون (1332– 1406م) من خلال تفسيره لمراحل نشأة وتطور الدول. ونعني بدورة الحضارة" تلك الأطوار والمراحل التي تمر بها حضارة مجتمع (أمة) أثناء حركته، حيث تبدأ بالنشوء والميلاد، ثم تنتقل إلى الازدهار والنهضة، لتشهد أخيرا التدهور والسقوط، لتعيد كرتها من جديد في مجتمع آخر يشهد توفر فيه نفس شروط القيام. فالتاريخ الإنساني حلقات متسلسلة، تشكل الحضارة إحدى وحداته، فهي في صيرورتها لا تسير في تقدم ورقي مستمرين بل تجري إلى تأخر وانحطاط، حيث أنها تسلك دورات مستقلة، لكل منها مراحل تقدم ورقي ومراحل تأخر وانحطاط.(قسطنطين، 1964، 289)

إن الحضارة في حركتها عند اشبنجلر، تتبع مراحل وأطوار، مرحلة النمو والنهوض، ثم مرحلة الأوج والازدهار، ثم مرحلة السقوط فالموت، لتعيد نفسها أو كرتها من جديد، وفي مجتمع آخر، وليس في المجتمع الوليد، حيث يقول اشبنجلر: << فكل شيء منظم، كادراك الولادة والموت والشباب والسن والعمر...إن العصور والمراحل والأوضاع والأشخاص تكرر ذاتها كنماذج حقيقية >>.(ازوالد، 1964،ص 40). إن مسرح التاريخ عند اشبنجلر، يتألف من عدة حضارات عظيمة، تظهر كل واحدة منها من خلال فكرة بدائية في تربة إقليم ما، وتكون تلك التربة بمثابة الأم للحضارة، إذ تبقى مرتبطة بها طوال دورة حياتها، وتمثل تلك القوة روحاً تصبغ كل مظاهر الحضارة بطابعها الخاص.

فكل حضارة تملك بذرتها المتوارية داخل تربتها، فتشرع هذه البذرة بالنمو، بعد أن تكتشف مبدأها الروحي والميتافيزيقي الذي تتخذ منه أساسا لنهضتها. فالحضارة تولد في اللحظة التي تستيقظ روح عظيمة وتنفصل عن الحالة الروحانية الأولية للطفولة الإنسانية الأبدية، فتعزل نفسها لتصبح شكلاً مما لا شكل له، وشيئا محددا فانيا مما هو غير محدود وخالد وتزدهر تلك الروح في تربة رقعة من الأرض يمكن تحديدها وترتبط بهذه الرقعة كارتباط النبات في الأرض، وتحقق كامل إمكانياتها في أشكال شعوب ولغات ومذاهب وفنون ودول وعلوم، وبعد ذلك تموت وتعود إلى حالتها الروحية الأولية. هذه الروح حينما تحاول تحقيق إمكانياتها تتعرض إلى قوى خارجية متعددة، تشيع في التربة حالة الفوضى واللاشعور المظلم، غير أنها تفرض صورتها على تلك الحالة، ويشكل الصراع بين الروح وتلك القوى الفوضوية تاريخ الحضارة بأكمله.(اسوالد، 1964، ص217). فالحضارة تنقل من الصيرورة إلى الصير، فهي تنتقل من عصر النمو الحركية والنشاط والفاعلية إلى عصر ومرحلة السكون والجمود، إنه الموت يتبع الحياة.(اسوالد،1964، ص87)

ومنه يتقرر لدينا أن جوهر طبيعة تفسيره للحضارة أنه تفسير بيولوجي، كونه اعتبرها مجرد كائنا عضويا ينتهي عند أجل، ولا شيء يحدث مرتين" لكل حضارة إمكاناتها الخاصة للتعبير عن ذاتها، هذا التعبير الذي ينشأ وينضج وينحل ولن يعود أبدا"(اسوالد، 1964، ص69).

وفي نفس الإطار يذهب مالك بن نبي، حيث يسجل أن من ملاحظاته الاجتماعية أن للتاريخ أو الحضارة دورة وتسلسلا(بن نبي، 1987، ص52)، فهذا القانون طبيعي، لأنه يخضع لنفس النواميس التي تخضع لها باقي مخلوقات الله في الكون، ببزوغ الهلال ثم يستكمل تدريجيا دورته لينتهي بعد ذلك بالزوال ليبدأ شهرا جديدا في إطار السلسلة الدورية المستمرة، وهذا ما جعله يقول:<< إذا نظرنا إلى الأشياء من الوجهة الكونية فإننا نرى الحضارة تسير كما تسير الشمس فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ثم متحولة إلى أفق شعب آخر>>(بن نبي، 1987، ص55). فالمناسبة بين الدورة والتسلسل هو عدم التناهي بين الطرفين، ففي السلسلة مبتدؤها ومنتهاها، فكذلك الأمر بالنسبة للحضارة، إذ أن كل حضارة إنسانية في تطورها تمر بمراحل مثل المراحل العمرية لدى الإنسان من طفولة وصبا وشباب، ثم تتبعها الشيخوخة فالموت. فكل وحدة منها تشهد بداية وتحمل المجتمعات للمسؤوليات، حيث التقدم بنوعيه الروحي والمادي، ثم تبدأ في التراجع والتخلف لتشهد نهايتها، لتبدأ دورة حضارية جديدة في مجتمع آخر طبقا لتركيب عضوي تاريخي جديد، يقول بن نبي عن ذلك: << يجب أن ينتهي التاريخ في نقطة ما، كي يتجدد التاريخ من نقطة جديدة يجب أن يكون هذا مفهوما وخاصة لدى الشباب...هذا الإفلاس هو طريق البداية>>(بن نبي، د ت، ص17-18).

2- أطوارها وتطبيقاتها:

في إطار تشبيه اشبنجلر حياة الحضارات بكائنات عضوية كالإنسان والحيوان، قد حاول دراستها على أساس مقارن، كما يفعل علماء الأحياء– البيولوجيا –، حينما يدرسون النباتات والحيوانات، وهذا بالرغم من وجود خصائص ذاتية لكل حضارة، فإن المظاهر التي تكشف عنها الحضارة الواحدة، تناظر تلك التي تكشف عنها سائر الحضارات.

فإذا كان سياق الحياة واحد بين الأفراد التي تدخل تحت نوع واحد، فللحضارات جميعا سياق واحد تسير عليه. حيث يقرر اشبنجلر على أنه لا يشك أحد منا من أن شجرة من البلوط مثلا بعد أن بلغت من العمر ألف سنة، فإنه لا يمكن أن تبدأ اليوم نفس النمو الذي بدأت به يوم أن نبتت لابد للكائن العضوي من حد عنده يقف النمو، وهذا الحد يتوقف على الصورة الباطنية (الذاتية) للنبات أو الحيوان أو التاريخ أو الحضارة، الأمر الذي لا يسمح القول بحضارة إنسانية تستمر في سيرها في خط أفقي ممتد وتاريخ عام.(اسوالد، 1964، ص69)

يقابل اشبنجلر مسار الحضارة، بأدوار وأطوار الفصول الأربعة من السنة، جاعلا لكل طور منها مميزاته وخصائصه الخاصة. والذي طبقه اشبنجلر على حضارتين هما: العربية والغربية.

إن الحضارة العربية، وتمثل في نظره جميع الحضارات التي قامت في الشرق الأوسط، ما عدا الحضارة المصرية، والتي تضم: اليهودية والمسيحية والزرادشتية والمانوية والنسطورية، وجميع ما قام في منطقة الشرق الأوسط، وامتد حتى الصين وشمال إفريقيا التي تعتبر فرع من فروعها.

ولعل من الأسباب الجوهرية التي دفعت اشبنجلر إلى الاهتمام بهذه الحضارة وتصنيفه لها ضمن الحضارات الكبرى، هو التعرف على الشكل الباطني لها، والذي شوهته قوالب الحضارة الغربية، هذا الشكل الذي لم يتم معرفته حتى الآن، حيث أن هذه الحضارة استطاعت في فترة وجيزة أن تتخلص من قيود وأغلال الحضارة الغربية(التشكل الكاذب) لتتمكن من السيطرة على جميع الحضارات التي قامت في الشرق الأوسط.(اسوالد، 1964، ص18).

كما يرجع اشبنجلر الجهل بهذه الحضارة إلى غياب دراسة حقيقية وموضوعية لها، وسبب ذلك يعود إلى التحيزات الفيلولوجية والدينية، نتيجة تشعب واختلاف الأقاليم المنتمية إليها، أدى إلى عدم وجود لغة، حيث أنها تضم عدة قوميات، منها اليهودية والمسيحية والإسلام." فمهما بدت عقائدها متباينة مختلفة، فإن تدينا متجانسا ينتظمها جميعا ويعبر عنها بواسطة رمزية متجانسة إلى الخبرة والعمق(...) وهذا الشيء ينبئ بروحانية متشابهة، إنها الحس بالكهف>>(اسوالد، 1964، ص381- 382). كما أن هذا الجهل يعود إلى تحيز الغرب لحضارته.

لقد قدم لنا اشبنجلر صورة الحضارة العربية، بدءا من رمزها ونفسها الأولية ومنشئها، وتطوراتها، ومآلها، وهي تبدو صورة غير واضحة(خاصة سقوطها). فالحضارة العربية التي بدأت بالتاريخ الميلادي، كانت أول مرحلة عرفتها هي مرحلة الربيع، التي ظهرت فيها الغنوصية والأناجيل (سفر الرؤيا) والأساطير المسيحية، والمازادية والوثنية، ثم مرحلة الصيف التي حيث ظهر فيها تشكيل صوفي ميتافيزيقي ونظرة جديدة إلى العالم، وذروة الفلسفة الكلامية، ثم تأتي فترة الصيف التي هي فترة الإصلاح مع أوغسطين واليعاقبة والنساطرة وهي فترة القرنين السادس والسابع الميلادي، ثم تأتي فترة الخريف والتي تعرف بعصر التنوير حيث الاهتمام بالعلوم الفلسفية وسيادة العقل، ثم بعدها تأتي مرحلة الشتاء (السقوط) وهي المرحلة التي تحولت فيها الحضارة العربية إلى المدنية، فاقدة للروح والحيوية، حيث أخذت مذاهب الشك والإلحاد في الظهور ويحصر هذه الفترة ،كما قلنا في مرحلة جماعة إخوان الصفاء وظهور الفكر التجريدي.

فإذا كانت الحضارة العربية لها فصول أربعة تمر بها فان الحضارة الغربية بدورها لا تخرج عن هذا الإطار. حيث يرى اشبنجلر أن ما يقابل المرحلة الأولى من مراحل دورة الحضارة الغربية (الأوربية –الأمريكية) من فصول السنة هو فصل الربيع، حيث بدأت في أول أمرها في فجر العصر الروماني القوطي حوالي سنة 900 م وتستمر إلى غاية القرن الخامس عشر، وهي بدأت طفلة لم تشعر بعد بقواها، ولكنها تؤذن بنمو فذ و سريع، فزكت وترعرعت، وهكذا زفت عليها روح الربيع فأشاعت فيها قشعريرة " الإبداع " والحياة المليئة، وأصبح كل شيء يوحي بميلاد روح جديدة. (بدوي، 1982، ص104).

أما مرحلة صيفها، فكان من القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر– عصر النهضة– وتميزت على المستوى السياسي بمناهضة نظام الإقطاع وسلطان الكنيسة، وقيام الدول الحديثة والطبقة البرجوازية في المدن، وعلى المستوى الثقافي، عرف ظهور شكل فلسفي مجرد للشعور بالعالم، ومناهضة المناهج المثالية، وحركة الإصلاح الديني، وعلى المستوى الفني ظهور الأسلوب التصويري في الهندسة المعمارية ابتداء من مكائيل انجلو وساد التصوير الزيتي ونشأة الموسيقى.

أما مرحلة الخريف، فتبدأ من القرن الثامن عشر وتنتهي بالقرن التاسع عشر، واتسمت على المستوى السياسي بقيام ثورات على أنظمة الحكم القديمة،، كالثورة الفرنسية والأمريكية وقيام أنظمة الحكم الجديدة. أما من الناحية الثقافية فقد عد هذا العصر بعصر التنوير والإيمان بقدرة العقل المطلقة، كما ساد هذه الحقبة من الناحية الفنية الموسيقى الكلاسيكية بتأثير عدد من الموسيقيين العظام أمثال "باخ "و"موزار" و"بتهوفن" ...

أما المرحلة الأخيرة، فهي تمثل شتاء الحضارة، وهي المرحلة التي دخلت فيها الحضارة الغربية الى المدنية، والتي قد ابتدأت من القرن التاسع عشر الميلادي، وهي ما زالت مستمرة إلى غاية 2200 م تلاقي بعدها مصيرها المحتوم مثلما

واجهته الحضارات الأخرى. يقول اشبنجلر: << فعقب بضعة قرون من يومنا هذا، لن تكون هناك حضارة غربية، ولن يكون هناك من الألمان والانجليز والفرنسيين، أكثر مما كان هناك من الرومان في عصر جوستيان>> (اسوالد، 1964. ص313). كما يقول أيضا:<< فعندئذ لن تنشا أبدا أية حضارة مرة أخرى ونموذج بشري يكون فيه تاريخ العالم شكلا فعالا كهذا للوعي اليقظ>>(اسوالد، 1964، 59).

إذا كان اشبنجلر أكد في تفسيره أن الحضارة في دورتها، تشهد أربعة أطوار، كأطوار السنة و الإنسان، ولكل طور مميزاته السياسية والثقافية والفنية. فإن مالك بن نبي قدم تصنيفا ثلاثيا، قائم على أبعاد الإنسان الدينية والنفسية والاجتماعية والتاريخية. والذي يتمثل في ثلاث مراحل وهي: مرحلة الروح ومرحلة العقل ومرحلة الغريزة.

أولا: مرحلة الروح، والتي تسود فيها سيطرة الروح بفعل نفوذ الفكرة الدينية (Idée religieuse) " فالحضارة لا تنبعث –كما هو ملاحظ – إلا بالعقيدة الدينية"(بن نبي، 1987، ص56). فالمجتمع يكون خاما، حتى تبعث فيه الروح التي تنشطه، وتثير فيه قوته، فيتحرر الفرد في هذه المرحلة الأولى الصاعدة من هيمنة الغريزة، ويخضع لهيمنة الروح. فالدين هو الذي يقوم بجمع وتفعيل عناصر الاجتماع، المتمثلة في العوالم الثلاث: عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء. وتقديمه للفكرة الدينية بوصفها المرَكِّب Catalyseur الذي يقوم بالجمع والتفعيل. إذ عندما تقوى العلاقة الروحية (La relation spiritual)، تقوى معها شبكة العلاقات الاجتماعية، إذ "كلما كانت العلاقات الاجتماعية أوثق ،كان العمل فعالا ومؤثرا"(بن نبي، 2006، 38).

ثانيا: مرحلة العقل، والتي تضعف فيها سلطة الروح، وتبدأ الغريزة في التحرر من التحكم بالتدريج، لأن العقل لا يملك قدرة الروح في السيطرة والتوجيه على الصورة التي عرفها عهد بني أمية. إذ أخذت الروح تفقد نفوذها، وكف المجتمع عن ممارسة ضغطه على الفرد. تبدأ الغرائز في توسيع نفوذها، فتستعيد الطبيعة سيطرتها على الفرد، وعلى المجتمع، شيئا فشيئا. فإذا ما بلغ هذا التحرر تمامه، عادت الغرائز إلى سيطرتها على مصير الإنسان. كما تشهد هذه المرحلة نقصا في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية، وإن هذه الفكرة تظل مواصلة لنقصانها منذ أن دخلت الحضارة منعطف العقل. كما تبلغ الحضارة أوجها، بازدهار العلوم والفنون، والتي تجلب أمراضا اجتماعية معينة لم تجذب انتباه علماء لاجتماع والمؤرخين، لأن آثارها المحسوسة لا زالت بعيدة.(بن نبي، 2002، ص111) فهي كبداية السوس في الأسنان.

ثالثا: مرحلة الغريزة، وهي مرحلة إنسان ما بعد التحضر، الذي تفسخ حضاريا، هذا الطور يمثل نقطة تحول أخرى في مسار التاريخ، إذ يأخذ اتجاها معاكسا لاتجاه طور الروح الصاعد، وهذا ما يؤذن بأفول شمس الحضارة. حيث تنتقل الحضارة الى الانحطاط، والتي تسود فيها الغريزة وتكشف"عن وجهها تماما، وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية، وتعود الأشياء كما كانت في مجتمع منحل، ضرب نهائياً في ليل التاريخ، وبذلك تتم دورة في الحضارة.(بن نبي، 2002، ص 112) " أي تكتمل الدورة التاريخية بمراحلها الثلاث.

إن الدورة الحضارية عند مالك بن نبي، تمر بثلاث مراحل، كل مرحلة لها مميزاتها وخصائصها الخاصة بها، يحتل الإنسان فيها موقعا، ويكون له فيها دورا، يبدأ هذا الدور في الضعف بقدر ما يضعف إيمانه بالفكرة والهدف، وبقدر ما

تفقد الروح سيطرتها على سلوكه وغرائزه، يأخذ المجتمع مساره باتجاه الضعف والأفول، حينما تتوفر مجموعة من الظروف النفسية الزمنية.

إن ما يؤكد صحة هذه النظرية الدورية للحضارة عند "مالك بن نبي"، هو استقراءه لتاريخ الحضارات، ذلك أن التجارب التاريخية تؤكد بصفة عامة أطوار هذه الحضارات، ولا تكاد أي حضارة تشذ عن هذه القاعدة. ولقد قدم لنا مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة، تطبيقين لهذه المراحل الثلاث من الدورة الحضارية، وهما: الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية. حيث يقرر أن المدنيات الإنسانية، عبارة عن حلقات متصلة تشابه أطوارها مع أطوار المدنية الإسلامية والمسيحية، إذ تبدأ حلقتها بظهور الفكرة الدينية، ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تكون قد فقدت الروح ثم العقل بن نبي، 1987، ص59). كما بين أوجه التقارب بينهما بقوله:"وبتأمل الحضارة المسيحية الحالية نجدها تسير سيرة الحضارة الإسلامية التي سبقتها في الزمن...فإن التاريخ يؤيدنا فيما نذهب إليه. ذلك لأنه يقرر أن الحضارة تولد مرتين، أما الأولى: فميلاد الفكرة الدينية، وأما الثانية: فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس، أي دخولها في أحداث التاريخ.(بن نبي، 1987، 61) "

3– الجانب الروحي كمكون للحضارة:

كان للبعد الروحي حضورا قويا في تفسير الحضارة، وهذا ما يتضح عند اشبنجلر من خلال تأكيده أن لكل حضارة روحا أولية لها تنطلق منها وتحيا من خلالها، متى فقدت الروح فقدت وجودها وتتحول إلى عدم، هذه الروح التي تعني عنده النفس، ومن هنا يبدو متأثرا بالمذهب الحيوي عند كل من برغسون وغوته، حيث نقد المذهب الآلي. كما أنه ثار ضد على العقل قاتل آماله وتطلعاته، وندد بالعلم مجهض أفكاره ونوازعه. كما يرى أننا يجب أن ندرس التاريخ كإشاع أي عن طريق الوجدان والفطرة لا كطبيعة، لأن ذلك من اختصاص العلم، لأن هذا الأخير مجاله الواقع لا الميتافيزيقا.

كما أن اشبنجلر ذهب تقريبا إلى نفس ما ذهب إليه مواطنه فريدريك هيغل Friedrich Hegel(1770–1831 م)، حينما أكد أن الحضارة تنشأ من خلال روح خاصة بها، تحمل في جوفها إمكانيات تلك الحضارة، وهي بذلك تحمل تاريخ تلك الحضارة بأكمله. إذ الحضارة في نظره – كما قلنا سابقا – تولد في اللحظة التي تستيقظ فيها روح كبيرة وتنفصل عن الروح الأولية للطفولة الإنسانية الأبدية، كما ينبثق الحد والفناء من اللامحدود والبقاء، وهي تنمو في تربة بيئة يمكن أن تنمو فيها، وتموت الحضارة حينما تكون الروح قد حققت جميع إمكانياتها وطاقاتها على هيئة لغات وشعوب ومذاهب دينية وفنون وعلوم، ومن ثمة تعود إلى الروحية الأولية(اسوالد، 1964، ص217).

إن التفسير الذي قدمه اشبنجلر، كان نتيجة التقدم المادي الهائل الذي مرت به أوربا الغربية، وهو لن يزيدها حكمة وعمقا، لأنه سيؤدي إلى أزمة روحية وإلى توترات باطنية، الأمر الذي يجعل منها موطنا للقلق واليأس والتشاؤم.

ويتجلى لنا البعد الروحي للحضارة من خلال الأثر الجيتوي في رواية فاوست (شخصية الدكتور فاوست) على فكر اشبنجلر، حيث استعان باسم فاوست، على تسمية الحضارة الغربية(الحضارة الفاوستية).(اسوالد، 1964،

ص335)، لشعوره بوجود تشابه وتقارب كبيرين، بين شخصية الدكتور فاوست، والحضارة الغربية المعاصرة، من حيث الطموح المتزايد، واللامتناهي، والعمق الباطني.

إنّ الدكتور فاوست، بعد أن وصل إلى مرحلة الكهولة، يغريه الشيطان ليعيده إلى مرحلة الشباب، مدة أربع وعشرين عاماً، قضاها في مسرات دائمة، إلاّ أنّ الكهولة تعود إليه من جديد، ويلاحظ أن لا مهرب من ذلك، ويعيش الآلام والأشجان، ويلاحظ إفلاس الروح، وخواء القلب، ودمار النفس، وانحطاط القوة، ويدرك أنّ السعادة التي كان ينشدها لم تكن إلاّ وهماً وضلالاً(يوهان، 1929، ص147- 194). ففاوست هو نموذج الإنسان الساعي إلى المزيد من القوة والكمال بوسائل خارجة عن الطبيعة، وهي ما يعرف بالسحر بأوسع معانيه، فالمستقبل مجهول، والإنسان يريد معرفة ما سيجيء به، والطبيعية المسيرة عاجزة عن تحقيق ذلك، فلنبحث عن قوى أخرى خارقة يسخرها لتحقيق ما يصبو إليه لأن الطبائع الموجودة في الواقع تقف أمام سبيله في مرامه، فلا سبيل له في ذلك إلا السحر.

كما اعتبر اشبنجلر في تفسيره للحضارة، أن منطلق كل حضارة ديني، حيث اعتبر ربيعها عصر وجداني ريفي إقطاعي، يحمل إبداعات عظمى للنفس(الروح) المستيقظة المثقلة بالإمكانيات الباطنية، التي تساعدها على الإنتاج والعطاء. وتتصف كذلك باتساع الخيال وامتلاكها لديانة سحرية، ونظرة للحياة عميقة الجذور، وولادة أسطورة ذات طراز عظيم، تعبر عن شعور جديد بالله، كما ذكر دين كل حضارة في بدايتها، كالدين الفيدي عند الهنود والدين الهليني الإيطالي، والمسيحية البدائية الأناجيل، الغنوصية، الأساطير المسيحية في الحضارة العربية، والكاثوليكية في الحضارة الغربية. (اسوالد، 1964، ص766).

أما مالك بن نبي، فنجد أساس قيام الحضارة، هو الأساس الروحي، فعامل الدين أو الروح هو العامل الحاسم في تغيير النفس الإنسانية، فالمرحلة الأولى من التاريخ الإسلامي- كما ذكرنا آنفا- كانت مرحلة الروح. فالدين يعد محرك وصانع الحضارة، وهو الذي أدى إلى" تحول أعراب الجزيرة العربية البسطاء بعد أن مستهم شرارة الروح إلى دعاة إسلاميين (...) إلى تلك القمة الخلقية الرفيعة التي انتشرت منها حياة فكرية واسعة متجددة "(بن نبي، 1987، ص57). فالدين بعث في الإنسان المسلم روحا محركا للحضارة، والحضارة المسيحية بدورها تسير سيرة الحضارة الإسلامية، حيث ظهرت روح سامية مع الجرمانيين، ساهمت في ميلاد العالم المسيحي، فالروح المسيحية ومبدؤها الخلقي،كانا القاعدتان اللتان شيدت عليهما أوروبا حضارتها وسيادتها التاريخية(بن نبي، 1987، ص61-63).

4- الاعتماد على أسلوب المشابهة والمقارنة:

إن قراءتنا لفكر كل من مالك بني و اشبنجلر، نجد كل منهما يعتمد على أسلوب المشابهة والتمثيل في تقرير الحقائق. وهذا يعود بالطبع إلى نظرية الدورة الحضارية في حد ذاتها، حيث يعتقد أصحابها بالتكرار الحتمي في التطور التاريخي والحضاري، وقد نشأت عن أزمة المنهج المقارن، ففي بداية القرن تطلب مشكلة إيجاد معيار للتحليل المقارن حلا عاجلا، إذ ازداد وضوحا في المقارنات والتشبيهات التاريخية التي تهتم بشكل عام ومجرد بنمط العمليات التاريخية وليس بمحتواها المادي، وقدمت هذه النظرية وسيلة مصطنعة للتغلب على هذه الصعوبات. فيعتبر التكرار والتوافق الزمني والطبيعة

الدورية للعمليات الحضارية التاريخية الدليل الوحيد على وجود القوانين التاريخية الكلية. فهذه النظرية تذهب إلى القول أن المجتمع يمر بطريقة لا نهائية بنفس المراحل، وأكدوا فكرة العود المستمر للبشرية (نتشه، و اشبنجلر).

يرى اشبنجلر، أن الوسائل التي نتعرف بواسطتها على الأشكال الميتة هي قانون رياضي، أما الوسائل التي تمكننا من فهم الأشكال الحية، فتتجمع في قانون المشابهة أو المماثلة، وبواسطة هذه الوسائل نستطيع أن نميز بين الاستقطابية (polarity) والتتالي في العالم (periodicity).

كما يؤكد في فلسفته أيضا أن العصور والمراحل والأوضاع والأشخاص، تكرر ذاتها كنماذج حقيقية، فمن النادر أن كتب احد بحثا عن نابليون دون أن يلقي نظرة جانبية على قيصر واسكندر الكبير. غير انه يقر أن أسلوب المقارنة ليس دائما صحيحا، إذ أن هناك مقارنات أخرى بعضها غير صحيح وآخر غير مغلوط،كمقارنة فلورنسا بأثينا، وبوذا بالمسيح، والمسيحية البدائية بالاشتراكية المعاصرة. (اسوالد، 1964، ص 41).

إن اشبنجلر اعتمد على مبدأ المقارنة والتشبيهات، إذ يذهب إلى أن مهمة فلسفة التاريخ هي فهم البناء المورفولوجي (الشكل الخارجي)، إذ أن كل حضارة توافق في هيئتها وتركيبها مختلف الحضارات الأخرى، إذ تمر بفترات النشوء، الازدهار، والموت، و تشهد في مرحلة من المراحل ما تشهده حضارة أخرى من خصائص، من ظهور للتدين الإصلاح الديني، التطهير، العقلانية، سيطرة الآلية والمدنية في مرحلتها الأخيرة، وهذا ما أكده وبينه بكل وضوح في جداول المقارنة(اسوالد، 1964، ص766).

إن الدورة الحضارية تعيد نفسها بكل تفاصيلها ، وكل مرحلة تظهر مجددا في كل دورة ،ولكن ما يعود إلى الظهور لا يكون نفسه ،إذ لا شيء يحدث مرتين ،بل يظهر شيء مواز له أي أن مرحلة في دورة ما تقابل دورة ماضية من حيث التكوين.(النشار، 1998، ص347). فاعتماده على تشبيه الحضارة بالكائن البيولوجي، حيث تبث الروح في بيئة مجتمع ما كما تبث البذرة في تربة ما، هذه الروح تحمل إمكانات خلاقة تساعدها على صنع الحضارة، هذه الإمكانات محصورة في فئة خاصة من الناس هي النبلاء. كما انه بين خاصية التوافق والتماثل بين الحضارات(التعاصر) على مثال جيولوجي مستمد من علم المعادن.

أما إذا رجعنا إلى تحليلية مالك بن نبي الحضارية نجده بدوره اعتمد على أسلوب المشابهة والمماثلة، فهو لم يحلل دورة الحضارة الغربية أو أي دورة حضارية أخرى، وإنما حاول أن يجد فيها ما يؤكد صحة أحكامه وتحليلاته واستنتاجاته على أطوار دورة الحضارة الإسلامية، والتي نجدها بشكل أكثر وواضح في كتابه شروط النهضة، ولا نستطيع الإلمام بكلها وإنما نكتفي ببعض منها حيث يقول:<< وسنشرع الآن في تحليل دور كامل من ادوار الحضارة، بل دورتين من الوجهة التاريخية حتى نستخرج منه السر الكوني الذي يركب هذه العناصر الثلاثة : الإنسان، والتراب، والوقت، ليبعثها قوة فعالة >> (بن نبي، 1987، ص 56) ويقول أيضا: << التجارب التاريخية العامة تؤكد أطوار الحضارات هذه ،لا تكاد حضارة ما تشذ عن هذه القاعدة >>(بن نبي، 1987، ص59).

كما أن استند مالك بن نبي في تقريراته وأحكامه إلى أحكام بعض المؤرخين خاصة المؤرخ، هارمان دي كسرلنج Hermann de Keyserling (1880-1946) في قوله أنه مع الجرمانيين ظهرت روح خلقية سامية في العالم المسيحي، والمؤرخ هنري بيرين Henri Pirenne (1862- 1935 م) الذي لاحظ الارتباط بين بعث الدين وظهور الحضارة – أي حضارة – في كتاب له بعنوان محمد وشارلمان، وازن فيه بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، ثم كسرلنج الذي أشار إلى المرحلتين الأوليتين، والمرحلة الثالثة أشار إليها اسوالد اشبنجلر في كتابه الشهير تدهور الغرب.

إن الحضارات كتراكيب من التاريخ ، فتركيبها متماثل ومتوافق، فكل الحضارات كان منطلقها الدين، ثم تشهد مرحلة التقدم والتطور العقلي، الذي يصحبه الغزو والتوسع، ثم تأتي مرحلة المدنية، وهي مرحلة الرفاه والمنفعة و الاستسلام، فتخبو الروح شيئا فشيئا حتى تنتهي الحضارة ويعلن الإفلاس إنها في ذلك شأن أي حضارة أخرى تتوفر فيها نفس الشروط .

وإذا كان اشبنجلر اعتمد على أسلوب التمثيل البيولوجي والجيولوجي في بيان مسار الحضارة ، فإن مالك بن نبي اعتمد بدوره على هذا الأسلوب باختيار أمثلة من علم النفس والتاريخ والواقع(الطبيعة). ليثبت صحة أحكامه وتحليلاته. غير أن هذا الأسلوب غير مأمون النتائج، إذ لا يمكن في الحقيقة الركون إليه لكشف ماهية الحضارات، كون هذه الأخيرة تختلف عن الظواهر الأخرى طبيعية كانت أو إنسانية.

5- سقوط الحضارة(المآل):

إن قراءتنا لفكر كلا المفكرين، نجد كل منهما، يؤكد على فكرة السقوط الحضاري، وهذا انطلاقا من نظرية الدورة الحضارية أو التعاقب الحضاري. فنجد اشبنجلر، يؤكد على فكرة السقوط الحضاري، والتعاقب الدوري للحضارات مثله في ذلك مثل "مالك بن نبي"، فالتاريخ يتكون من حضارات مستقلة فريدة من نوعها، وهي كائنات عضوية فائقة لها مصيرها الفردي الذي تنتهي إليه مثلها في ذلك مثل الكائن الحي، فهي تمر بفترات الطفولة الشباب، والكهولة والشيخوخة، أي أن هناك فترات النشوء ثم الازدهار ثم الشيخوخة فالموت. فالحضارات بدورها فهي لا تشذ عن هذه القاعدة، إذ هي لا تدوم." إن لكل حضارة إمكاناتها الجديدة الخاصة بها للتعبير عن ذاتها، هذا التعبير الذي ينشأ وينضج وينحل ولن يعو د أبدا "(اسوالد، 1964، ص69). فالحضارة عندما تستنزف أسباب وجودها، وتخبو نارها في الوقت المقرر لها، عندئذ لن تنشأ أية حضارة أخرى ونموذج بشري يكون فيه تاريخ العالم شكلا فعالا كهذا للوعي اليقظ. (اسوالد، 1964، ص59). فتنبؤاته كانت لها تأثيرات فلسفية واسعة النطاق في الفلسفات اللاحقة، خاصة في الفكر الغربي العاصر.

إذا ذهبنا الى تفسير مالك بن نبي، فهو بدوره ليس في منأى عن هذا التفسير، ففي تحليله لدورة الحضارة الإسلامية، يؤكد على أنها مرت أثناء مسيرتها وفق ثلاث مراحل: مرحلة الروح والنهضة، مرحلة العقل والازدهار، ثم مرحلة الغريزة و السقوط، وهي المرحلة التي هيمنت فيها الغرائز كلية على سلطة الروح أو التحرر النهائي من سلطتها. ففي مرحلة السقوط الحضاري فقد فيها المجتمع قدرا كبيرا من نزوعه الروحي، الذي تولد من الفكرة الدينية، كما فقد العقل سيطرته على الغرائز من ناحية، وقدرته على الإبداع من ناحية أخرى، فانطفأ مشعل العلم وفقد عالم الأشخاص مقوماته الأصيلة، فظهر نوع من التصوف المنحرف عن الشريعة الحقيقية، ظهر المخادعون والدجالون من كل نوع وخاصة شخصية(الزعيم).

إن مرحلة إنسان أو مجتمع ما بعد الموحدين، والتي دخلت فيها الحضارة طورا يقودها إلى التفكك والتدهور والأفول، من خلال انتشار واستفحال النزعة الشيئية، حيث استبدلت الأشياء بالعقول والنفوس وجمد الفكر وتدهور المجتمع، وهنا نجد مالك بن نبي يتفق مع أستاذه ابن خلدون في أن الترف والاقتناء والتكديس يؤدي إلى فساد الأنفس والأخلاق مما ينذر إلى الانحلال التام.

6– المنطلقات المرجعية:

إن المتتبع والقارئ لفكر اشبنجلر، يشعر بوضوح حضور الروح النتشوية بكثرة في ثناياه، وقد يزداد الشعور قوة ووضوحا، في قوله << لقد منحني نتشه موهبة الاستنطاق>>(اشبنجلر، 1964، ص 38). إن اشبنجلر يعطي لأحكامه شرعية، من خلال الاستشهاد بأحكام فريدريك نتشه Friedrich Nietzsche (1844– 1900م) وآرائه. حيث نجد كلا الفيلسوفين مشغولان بنقد النزعة العقلية التجريدية، ونبذ التضخم الآلي الذي يعاني منه مجتمع الغرب، كما يعاني كل منهما من أفول نجم الأرستقراطية الألمانية، الأمر الذي قرّب وبشكل كبير بين توجهاتهما الفكرية.

لقد وجد " نتشه" عوامل انحلال المجتمع الغربي، وقد شخصّ أنّ المدنية الغربية تقود الناس إلى حالة من الانحلال والشك، إذ أصبحت المثل العليا والقيم، مجرد أوهام وأباطيل، وغدت الحياة خالية من أي معنى، وخلا الوجود من الهدف والغاية، فتحول شعورهم هذا إلى يأس تام وإنكار لكل شيء(بدوي، 1982، ص145– 160)، وهذا ما يسميه نتشه(العدمية)، والتي يقصد بها نتشه قيمة عدم تأخذها الحياة، أي يتم نفي وجودها والحط من قيمتها، كما تعني أيضاً قيمة عدم تأخذها القيم العليا، إذ يتم إنكار صحتها(جيل، 2011، ص189–190). لقد أكدّ نتشه أن تلك العدمية وعوامل الانحلال، بدأت بالنمو في المجتمع الأوربي، وإنهما لا بد أن يسودا القرنين التاليين، فهذه ضرورة من ضرورات تاريخ الحضارات وتطورها.

إن مفكر التشاؤمية الثقافية (نيتشه) هو الذي ألهم اشبنجلر رؤيته الفلسفية عن مجتمع الغرب، ففكر اشبنجلر يعد امتدادا ومكملا لفكر نتشه، فهو في تدهوره أعاد للأذهان تفسير نتشه لمستقبل المجتمع الأوربي، بوصفه نتيجة أكيدة لمنطق التطور الحضاري، ووفق هذا التصور تكون فكرة التدهور ليست بجديدة في الفكر الألماني، وإن النقد اللاذع الذي وجهه زرادشت إلى المدينة، يعبر عن الشعور النتشوي تجاه مجتمعه الذي يعاني من قيم العبيد(قيم الديمقراطية).

يحتقر نتشه على لسان "زرادشت"، رجال المثل العليا الذين يطالبون بازدراء الحياة بحثاً عن عالم آخر، حيث يقول "زرادشت" في احتقار رجال الحقائق:<< لقد رعى السم أحشائهم، فهم يحتضرون، لقد تعبت الأرض منهم فليقلعوا عنها>>(فريدريك، د ت، س31). ويطالبنا نتشه بنبذ كل القيم المتمثلة بالرحمة والعدالة والشرف، ويكرهون رجال الوقائع وأصحاب الأرواح القوية الزاخرة بالإبداع والعطاء(فريدريك ، د ت،89)

وانطلاقاً من وحدة الانتماء الأرستقراطي، احتقر اشبنجلر رجال الإصلاح في المجتمعات العالمية، كونهم لا يستطيعون إحداث أي تغيير في مسيرة الحياة، ومجد ، مجد النبلاء في تفسيره للتاريخ والحضارة، كما مجد نتشه" النبلاء الأرستقراطيين في فلسفته، وهو الأمر الذي أدى اشبجلر إلى إصدار أحكام جزافية غير موضوعية، واحتقار كل الأيديولوجيات التي تسوي بين العبد والسيد.

إن مسيرة التاريخ عند نتشه، محكومة بمنطق الصراع بين القوي والضعيف، متأثرا في ذلك بالنظرية التطورية الداروينية، حيث البقاء للأقوى والأصلح، فكل مرحلة تاريخية تسود فيها قيم السادة(الأقوياء) و العبيد (الضعفاء)، حتى يفتك الأقوياء بالانتصار(ظهور الإنسان الأعلى) وهو بذل يمزج بين فلسفته في الأخلاق وأرائه التاريخية. فكل ما يقع في التاريخ حتى ظهور الإنسان الأعلى سيعود من جديد، فتوصل نتشه من خلال الرؤية والإلهام لا على المنطق والعقل إلى فكرة العود الأبدي(الدوائر المتكررة)، وهي تمثل مذهبه في هذا العالم، والتي من خلالها يكتسب التغيير التاريخي صفة الخلود، وأصبح مجرى الزمان(دوائر مقفلة)، يتلو فيها الحاضر الماضي كما يتلو الماضي الحاضر.

وعلى هذا النحو نرى نيتشه يقدم مفاهيم جديدة للتاريخ، قوة الحياة والبطولة والتفوق، وهو بذلك يمثل صورة نكوص باتجاه الروح الديونيسية، ضد الروح الأبولونية، والروح البربرية ضد الروح الحضارية، والارستقراطية ضد الجماهير.

أما إذا ذهبنا إلى "مالك بن نبي"، فلعل ما يميز فكره و إنتاجه، هو تكوّنه المزدوج بين الثقافتين الغربية و العربية الإسلامية، حيث نجد كتاباته تتميز بالتزاوج بين المصدرين. فبجانب الاستدلال من التراث نجد الحديث عن مفكرين معاصرين ينتمون إلى الثقافة الغربية. إن مالك بن نبي، قد قرأ في شبابه للعديد من أعلام الفكر الغربي– كما ذكرنا آنفا– غير أنه عادة ما يحلل تلك الآراء حول تحليلية الدورة، بل يأخذها كأمثلة تبريرية لأطروحته الحضارية، فمن بين المفكرين الذين تأثر بهم في بناء أطروحته عن الدورة الحضارية للمجتمعات نجد نيتشه، حينما استهل بداية فصله في كتابه شروط النهضة، الدورة الخالدة بمقولة عنه << إنه من السنن الأزلية أن يعيد التاريخ نفسه كما تعيد الشمس كرتها من نقطة الانقلاب>>(بن نبي، 1987، 52).

إن الزمان عند نتشه مجرد سلسلة غير متناهية من أحداث تعود مرة أخرى، أي أنه اعتبر حركة الزمان دائرة مستمرة، يجعل الخلود أمرا لا يحتمل مطلقا. فلقد أحس نتشه نفسه بهذا الوصف فوصف مذهبه لا على انه رأي في الخلود، ولكن على انه نظر إلى الحياة بجعل الخلود محتملا، إن الذي يجعل الخلود محتملاً في رأيه، هو توقعنا أن عود تركيب مراكز النشاط، ذلك العود الذي يكون عاملا ضروريا لميلاد ذلك التركيب المثالي الذي يسميه الإنسان الأعلى ولكن الإنسان الأعلى، وجد من قبل مرات لا عداد لها، وميلاده أمر لا بد منه.

خاتمة:

كانت هذه هي أوجه التقارب بين النظريتين في تفسيرهما للحضارة، والتي قادتنا اليها هذه الدراسة والتي يمكن حوصلتها في ما يلي:

– الانطلاق من نظرية التعاقب الدوري للحضارة في تفسير حركة التاريخ، والتي نالت شهرتها مع رائد فلسفة التاريخ ومؤسس علم الاجتماع عبد الرحمن ابن خلدون.

– إن الحضارة لها مراحل وأطوار، ولكل طور مراحله وخصائصه الخاصة به. هذا وإن اختلفت أعداد وطبيعة تصنيفات هذه الأطوار.

– التأكيد على المنطلق الروحي– الديني– للحضارة، فهي لا تقوى ولا تضعف إلا به.

– الانطلاق من أسلوب التمثيل والمشابهة في تقرير الحقائق، وهذا انطلاقا من الاعتماد على مبدأ المقارنة بين الحوادث من جهة والحضارات من جهة أخرى.

– التأكيد على فكرة سقوط الحضارة، إما سقوطا حتميا– عند اشبنجلر– أو إمكانية تجددها وبعثها من جديد– عند مالك بن نبي– متى استوعبت جيدا مقوماتها وأسباب سقوطها وتوفرت الشروط النفسية والاجتماعية والروحية المحركة لها. فمالك بن نبي يقدم لنا طرحا يتميز بنوع من التفاؤل(Optimisme) في مقابل التدهور والسقوط . وهذا في مقابل "اشبنجلر" الذي يغلب على طرحه نوع من التشاؤم(Pessimisme) بحضارة الغرب.

إن هذه الأفكار عن دورة الحضارة، قد لقيت صدى في العالم الغربي والعالم الإسلامي، حيث تأثر الكثير من المفكرين و فلاسفة التاريخ، بأفكار اشبنجلر، وخاصة أولئك الذين نقدوا الحضارة الغربية، ولم ينبهروا بانجازاتها واعتبارها أنها في تقدم مستمر، وتحسن نحو الأفضل، بل أنها في سيرورتها وحركتها لم تبلغ مرحلة العصر الذهبي بعد، ولعل من بين الذين تأثروا بفكره الحضاري، نجد: "هاربرت ماركيوز"Herbert Marcuse (1898– 1979م) في فكرة الإنسان ذو البعد الواحد، و"كولن ولسون" Colin Wilson (1931– 2013 م) في سقوط الحضارة أو اللامنتي، و"ارنولد توينبي" Arnold Toynbee (1889– 1975م) في التحدي والاستجابة والروسي "بيتريم سوروكين" Pitirim Sorokin (1889– 1968 م) وغيرهم.

أما في العالم الإسلامي، فنجد أفكار مالك بن نبي تعبر عن مشاريع فكرية تطبيقية، حملها كثير من إعلام النهضة والإصلاح والدعوة. حيث نجد "عمر عبيد حسنه" في كتابه "في النهوض الحضاري بصائر وبشائر" يؤكد على فكرة الدورات الحضارية، وهي ثلاث مراحل: مرحلة الفكرة والإيمان بالهدف، ثم تليها مرحلة العقل وضمور الإيمان، ثم مرحلة ما قبل السقوط النهائي، وهي مرحلة غياب الإيمان والعقل وبروز الغريزة، وعندها تسقط الحضارة ويتم الاستبدال. (حسنه، 1996، ص26–27) كما نجد " عبد الرحمن عزي" بدوره تبنى المنظور المالكي، في نظريته "الحتمية القيمية في مجال الإعلام" وخاصة من خلال تقصي أفكاره الواردة في كتابه"شروط النهضة"، حيث أتى بمجموعة من المفاهيم منها الكفاءة الأخلاقية، إذ اعد على ضرورة التوليف بين القيم الأخلاقية والتقنية، فغياب هذه المعادلة هي جزء من أزمة حضارتنا الحالية.(بومعيزة، 2006، ص132).

إن أفكار بن نبي، تشكل رؤية دينية وفلسفية عن الإنسان والحضارة، وكل ما يتعلق بجوانبها، مما يمكن القول أنه استطاع أن يستطبن ماهيتها و يقرب صورتها الى الأذهان، معتمدا على منهجية علمية في دراسته للموضوع، وبناء المصطلحات والمفاهيم، وهذا يعود الى تكوينه وثقافته الواسعة. وهذا على خلاف اشبنجلر الذي سعت فلسفته الى تأكيد تدهور المجتمع الغربي، وكأن الأمر يمتلك صحة كونية، فأحكامه كثيرا ما تتصف بالذاتية والاعتباطية، ولا تحفل بأسانيد علمية وموضوعية، لاعتماده على أسلوب التشبيهات والمورفولوجيا والتوسم، واحتقاره لكل مناهج العلم، فهو القائل:" الطبيعة تبحث علميا، أما التاريخ فينظر إليه نظرة شاعرية" .

ورغم هذا التقارب بين النظريتين في تفسير الحضارة، وبصفة خاصة التفسير الدوري لها، إلا أن ذلك لا يعني نفي مجالات الاختلاف بين النظريتين، وذلك بحكم اختلاف الشخصيتين في كثير من المرجعيات الفكرية والتكوين الثقافي والعلمي، الأمر الذي يحتم اختلاف المنظور الفكري والمنهجي والمعرفي الى هذا المجال من البحث، والذي يتطلب من كل باحث حصيف دراسة خاصة به، من اجل استبطانه وكشف ماهيته وكنهه.

قائمة المراجع:

1- اسوالد ، اشبنجلر،(1964). تدهور الحضارة الغربية،ط1. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

2- النشار ، مصطفى سامي، (1998). فلاسفة أيقظوا العالم، ط3، القاهرة: دار قباء.

3- بومعيزة، السعيد، (2006). اثر وسائل الإعلام على القيم والسلوكات لدى الشباب، دراسة استطلاعية لمنطقة البليدة، أطروحة مقدمة غير منشورة لنيل شهادة الدكتوراه دولة في الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، الجزائر.

4- بدوي، عبد الرحمن،(1982). د ط، الكويت: وكالة المطبوعات.

5- بن نبي، مالك،(د ت). المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط1، دمشق: عالم الفكر.

6- بن نبي،، مالك،(1987). شروط النهضة، ط4، دمشق: عالم الفكر.

7- بن نبي، مالك،(2006). ميلاد مجتمع، ط6، دمشق: عالم الفكر.

8- بن نبي، مالك،(2002).وجهة العالم الإسلامي، ط6، دمشق: دار الفكر.

9- جيل، دولوز،(2011). نتشه والفلسفة، ط3، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات.

10- حسنه، عمر عبيد، (1996). في النهوض الحضاري بصائر وبشائر، ط1، بيروت: المكتب الإسلامي.

11- فريدريك، نتسه،(د ت). هكذا تكلم زرادشت، د ط، بيروت: منشورات المكتبة الأهلية.

12- قسطنطين، زريق، (1964). في معركة الحضارة دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها وفي الواقع الحضاري، ط1، بيروت: دار العلم للملايين.

13- يوهان، جوته، (1929). فاوست، د ط، مصر: مطبعة الاعتماد.